مجلة بادر
المُحكّمة لعلم النفس الإسلامي

مداخل تنمية الإنسان من خلال هدايات القرآن.

من مقام التدسية إلى مقام الاستخلاف

د. محمد الفيلة

Soubhimed1@gmail.com

ملخص:

غرض هذا البحث بيان أسس تنمية الإنسان في القرآن تأهيلا له لمهمة العمران التي هي أهم تجليات الاستخلاف، من أجل ذلك فقد لزم التمهيد ببيان حقيقة الاستخلاف المراد من جهة كونه تكليفا من الله سبحانه للإنسان بالقيام بأمره في الأرض و إقامة شرعه فيها، مع ما يقتضيه ذلك من وجوب المدافعة، وأن ذلك مهمة الإنسان عموما؛ غير أنه لا يتأهل له إلا من حقق الاستجابة لله، بإصلاح النفس.

ومما يشكل على ذلك أن الإنسان في القرآن كله قد وصف بأوصاف قدحية تنبئ ببعده الكبير عن هذا الذي أراده الله منه، بل تجعله في اسفل سافلين أبعد ما يكون عن القيام بحق الله، و أبعد ما يكون عن مراد الله منه، فكان لا بد من التعرض لمختلف ما وصف به الإنسان بحسب ما يسمح به الحيز المتاح ضمن هذا البحث.

لأجل ذلك وجب التوفيق بين الأمرين سعيا لتبين الطريق الأسلم الذي يجب على المصلحين سلوكه وهم يحاولون تنمية الإنسان وتزكيته ليصير عبد لله قائما بأمره تأهيلا له للقيام بمهمة الاستخلاف على الوجه الأكمل.

الكلمات المفاتيح:

تنمية - الإنسان – هدايات القرآن -الاستخلاف -

Entry Points for Human Development Based on the Quran's Guidance

"From Discipleship to Vicegerency"

Dr. MOHAMED ELFILA
Soubhimed1@gmail.com

Summary

This research aims to clarify the foundations of human development in the Quran, qualifying humanity for the task of civilization, which is the most significant manifestation of successorship (to God on Earth). To achieve this, it was necessary to begin by explaining the true nature of this successorship, understanding it as a divine assignment from God Almighty to humankind to carry out His commands on Earth and establish His law therein, along with the necessary obligation of defense. This task is the responsibility of humanity in general; however, only those who have truly responded to God by rectifying themselves are qualified for it.

What complicates this is that humanity in the entire Quran has been described with negative attributes indicating a great distance from what God intended, even placing them in the lowest of the low, far removed from fulfilling God's rights and far from His will. Therefore, it was essential to address the various descriptions of humanity as permitted by the available space within this research.

For this reason, it is necessary to reconcile these two aspects, striving to clarify the safest path that reformers must follow as they attempt to develop and purify humanity so that they become servants of God who uphold His commands, thus qualifying them to undertake the task of successorship in the most complete manner.

Keywords

Human Development - Quran's Guidance - Vicegerency

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم افتح لنا أبواب الرحمة و أنطقنا بالحكمة واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة.

وبعد،

فقد اقتضت مشيئة الله وحكمته، أن يصطفي من خلقه ما يشاء ويختار، إذ اختار الله سبحانه من جميع المخلوقات ما شاء أن يختار، فجعل الإنسان على رأس ما اختار، وشاء أن يحمله أمانة الاستخلاف في الأرض لإعمارها بالخير؛ وهي أمانة عجزت عن حملها كل المخلوقات؛ قال تعالى: {إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢} [سورة الأحزاب:72]..

إن ذلك الاصطفاء الإلهي، وذلك التكريم الرباني، من شأنه أن يستوقف كل عاقل، وأن يدفعه للسؤال، عن سر ذلك وحكمته، وعن المزايا والخصائص التي امتازبها الإنسان، كي يتأهل لهذا التكليف الجسيم، وذلك التشريف العظيم.

ويزداد التساؤل إلحاحا حينما يطالع المرء آيات من القرآن الكريم تسم الإنسان بمختلف أوصاف النقص، والقصور، وتنعته بأقبح الأخلاق وأرذل السلوك. حيث اطرد في القرآن الكريم وصف الإنسان عامة بأوصاف قدحية من مثل قوله تعالى: {وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨} [سورة النساء:28].{يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنۡ يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨} [سورة النساء:28]. وقوله تعالى: {وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩} [سورة هود:9]، وقوله سبحانه: {وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤} [سورة إبراهيم:34]. وقوله أيضا: {خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤} [سورة النحل:4].ومثل قوله عز وجل {وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤} [سورة الكهف:54] ... وغير ذلك كثير.

وإن من شأن هذين المقامين المتعارضين أن يثيرا الحيرة، وأن يبعثا العاقل على التفكير في سبل التوفيق بينهما، على وجه يجمع بين الآيات دفعا للإيهام، واستشفافا لحكم الأحكام.

ولعل أسئلة كثيرة من شأنها أن تلح على متطلب ذلك البيان؛ من أبرزها ما يلي:

- ما دلالة لفظ الإنسان في القرآن الكريم؟ وما سياقات وروده فيه؟
- ما الذي يجعل مقام الإنسان يسمو إلى مقام العلو والتوقير، أو يهوي إلى مقام الذم والتحقير؟
- ما السبيل الأمثل للرقي بالإنسان، ورفعه إلى مقام التكريم واستئهال مباشرة العمران؟

للإجابة عن هذه الأسئلة جعلنا البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين فخاتمة.

المقدمة: وقد خصصت للكلام في جدوى البحث وحدوده.

التمهيد: وكان في مهمة الاستخلاف الرباني للإنسان مفهوما و أبعادا .

المبحث الأول: في دلالات لفظ الإنسان في القرآن الكريم وسياقات وروده.

المبحث الثاني: في سبل تنمية الإنسان لتأهيله لمهمة العمران كما يعرضها القرآن.

الخاتمة: وقد سردنا فيها أبرز النتائج وسطرنا فيها بعض التوصيات

والله نسأل أن ينعم علينا بالقبول وأن يتجاوز عنا ما كان في ما سودناه من جهل أو تقول بغير علم.

تمهيد: في مهمة الاستخلاف الرباني للإنسان مفهوما و أبعادا.

1) الاستخلاف في اللغة:

الاستخلاف استفعال من جذر(خ ل ف) ومداره في العربية على ثلاثة معان:

الأول: مجيء شيء بعد شيء يحل مكانه، ويقوم مقامه. والثاني خلاف قدام. والثالث التغير[1].

2) موارد الاستخلاف في القرآن الكريم

ورد جذر خلف في القرآن الكريم بالمعاني الثلاثة التي ورد بها في العربية، بصيغ مختلفة ونسب مختلفة أيضا، أكثرها في معنى التغير. إلا أن المأخذ القريب لمصطلح الاستخلاف المراد دراسته هو المعنى الأول [2]، وقد جاء في قرابة العشرين موضعا من مواضع وروده صريحا بهذا المعنى.

ولعل أول ما يلاحظ عند مطالعة موارد جذر خلف، أنه لم يرد بصيغة "الاستخلاف" في القرآن أبدا، و إنما ورد بالصيغة الفعلية (استخلف) ، (يستخلف)، كما في قوله تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥} [سورة النور:55]. وبصيغة اسم الفاعل (مستخلف) كما في قوله تعالى {ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧} [سورة الحديد:7].

كما ورد بالصيغة المجردة (خلف) مسبوقا بالجعل وهو الاتخاذ كقوله تعالى: {وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠} [سورة البقرة:30]. وقوله تعالى: {وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ

---

[1]. العين، مقاييس اللغة، مختار الصحاح، لسان العرب... مادة (خلف).

[2]. غير أن ذلك لا ينفي وجود صلة خفية بين تلك المعاني، يمكن أن تجعل مدخلا لمعنى محوري جامع، وهو ما بينه صاحب المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم الدكتور محمد حسن حسن جبل رحمه الله، فقد ذهب إلى أن المعنى المحوري لجذر خلف في القرآن الكريم وفي اللغة العربية هو: كَوْن أو بقية بعد ذاهب أو وراءه... انظر المعجم الاشتقاقي المؤصل مادة (خلف).

قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ} [سورة الأعراف:69]. فكأن الألف والسين والتاء عوضت بالجعل وهو الاتخاذ. كقولهم استوزر إذا اتخذ وزيرا، واستأجر إذا اتخذ أجيرا ...

ونسبة وروده بالصيغة الفعلية في الآيات أكثر منه بالصيغة الجامدة يدل على الارتباط بالزمان حالا واستقبالا، وهو ما يناسب مفهوم استخلاف الإنسان؛ وذلك بمقتضى دلالة الفعل المضارع، فإنه يدل على تتابع الحدوث وتجدده.

3) مجمل أقوال المفسرين

اختلف المفسرون في حقيقة المراد بالاستخلاف الوارد في آيات القرآن الكريم ويمكن تجميع أقوالهم في ثلاثة اتجاهات رئيسة هي:

- ✓ الأول: أن الاستخلاف مقصود به خلافة بني آدم بعضهم لبعض.
- ✓ الثاني: أن آدم ليس أول من وجد على الأرض، بل وجوده مسبوق بوجود غيره من الأجناس، (كالجن والبن، وكالرم والطم). فيكون معنى الاستخلاف مجيئه بعد تلك الأجناس وحلوله محلهم.
- ✓ الثالث: أن الاستخلاف مقصود به أن آدم خليفة لله في الأرض قائم بأمره فيها.

والذين قالوا بالقولين الأولين ذهبوا إلى إنكار القول الثالث من منطلقين.

الأول: أن الله لم يكن حالا في الأرض ولا عاملا فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السلطنة على موجودات الأرض حتى يصح اعتبار آدم خليفة له.

والثاني: أن سياق الآية يأباه؛ وذلك أن الملائكة إذ قال لها ربها: { إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ } لم تضف الإفساد وسفك الدماء في جوابها ربها إلى خليفته في أرضه، بل قالت: {أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا}، وغير منكر أن يكون ربها أعلمها أن له ذرية تخلفه يكون منهم الإفساد وسفك الدماء.

وأما من قال بالقول الثالث، فقد اختلفوا في حقيقة المراد بذلك؛ هل هو مقصور على آدم وحده؟ أم على آدم وبعض ذريته؟ أم هو عام في جنس ابن آدم؟

فذهب بعضهم إلى أن ذلك خاص بآدم عليه السلام، وأن استفسار الملائكة وتعجبهم مرده إلى ما أخبرهم به الله سبحانه، من أمر ذرية آدم وأنهم سيفسدون في الأرض؛ فالإفساد معني به ذرية آدم والخلافة مقصود بها آدم [3].

وذهب آخرون إلى أن من يصح أن يوصف بخليفة الله في الأرض هما آدم وداود عليهما السلام، لورود النص بهما فقط، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:30]، وفي قوله تعالى: {يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ} [سورة ص:26]. ومن هؤلاء النووي في قوله: "ينبغي أن لا يقال للقائم بأمر المسلمين خليفة الله، بل يقال الخليفة، وخليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" [4]، ومثله عند البغوي في قوله: "ولا يسمّى أحدٌ خليفة اللّه بعد آدم وداود عليهما السّلام، قال اللّه سبحانه وتعالى: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:30]، وقال: {يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ} [سورة ص:26][5]. ونقل تحرج بعض الخلفاء الراشدين من أن يوصفوا بكونهم خلفاء لله. وقال ابن تيمية في جعل داود خليفة: "أي خليفة عمن قبلك من الخلق ليس المراد أنه خليفة عن الله، و أنه من الله كإنسان العين من العين، كما يقول ذلك بعض الملحدين القائلين بالحلول والاتحاد كصاحب الفتوحات المكية"[6].

وذهب آخرون من المتأخرين خصوصا إلى أن الاستخلاف مقصود به جنس بني آدم، قال صاحب تفسير المنار بعد أن قرر أن الاستخلاف هو استخلاف عن الله متسائلا عن حقيقة الاستخلاف في الأرض بقوله: "ولكن ما معنى هذه الخلافة، وما المراد من هذا الاستخلاف؟"[7]. وفي معرض جوابه عن هذا السؤال، عرض لما امتازبه النوع البشري عن غيره مما خلق الله سبحانه، سواء ما علمنا حقائقه عن طريق الوحي كالملائكة والجن، أو ما علمنا حقائقه بالنظروالاختبار كالحيوانات والنبات والجماد، وغيرذلك. وبين أن الجامع بين تلك الموجودات أن الله قد خص كل نوع بشيء محدود معين لا يتعداه، فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية له استعداد محدود، وعلم إلهامي محدود، وعمل محدود، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته، ولا حصر لأحكامه وسننه، ولا نهاية لأعماله وتصرفه.

---

[3]. تفسير جامع البيان الطبري، تحقيق أحمد شاكر (1/ 449).

[4]. الأذكار، للإمام شرف الدين النووي، كتاب حفظ اللسان، باب في ألفاظ يكره استعمالها، ص 360.

[5]. شرح السنة للأرناؤوط، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة رضي الله عنهم، (75/14).

[6]. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية، ج (569/1).

[7]. تفسير المنار، محمد رشيد رضا (215/1).

أما الإنسان فغير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله - تعالى - هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملكه الأرض وسخر له عوالمها، أعطاه أحكاما وشرائع، حد فيها لأعماله وأخلاقه حدا يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعده على بلوغ كماله؛ لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له تلك المزايا؛ فلهذا كله جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة[8].

فاستخلاف الإنسان مظهر لعظمة الله سبحانه، وهو تجل لحكمته فمن حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض، يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وهل وجدت آية على كمال الله - تعالى - وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم.

قال الطاهر بن عاشور: "الخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي. ومما يشمله هذا التصرف، تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم و اتساع تصرفاتهم؛ فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم؛ إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك. وقد بعث الله الرسل وبين الشرائع، فربما اجتمعت الرسالة والخلافة، وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه، إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة؛ لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة"[9].

وهذا الرأي الأخير هو الذي نراه الصواب لاعتبارين قويين:

- أولهما أن القول إن المقصود هو آدم وبنوه لا تأباه النصوص الشرعية المتحدثة عن الخلافة في عمومها، وذلك لارتباطه بالتكليف المرتبط بوجود بني آدم إلى أن يشاء الله.
- ثانيهما ارتباطه بالبلاغ، والذي لا يستقيم إلا باعتبار صدوره لعموم المكلفين.

---

[8]. المرجع نفسه (1/ 217).

[9]. التحرير والتنوير، لابن عاشور. (1/ 399)

4) أبعاد الاستخلاف:

الاستخلاف مفهوم قرآني كلي، مكتنز، مستوعب لكل ما تعالق معه، من المفاهيم القرآنية، كالاصطفاء والابتلاء والعبرة، والاهتداء والاستجابة والإنابة والتقوى والفجور والكفر والاستكبار والعلو والجهل ...وفي ما يلي عرض لبعض ذلك:

أ) الاستخلاف والاصطفاء

إن الاستخلاف قائم على أساس الاصطفاء وذلك أن الله عز وجل قد اختار آدم عليه السلام، لمهمة الاستخلاف، ابتداء و أقام حجته على خلقه في ذلك، حيها وجمادها علويها وسفليها، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢} [سورة الأحزاب:72]. وهو استخلاف عام.

واصطفى من ذريته من يبلغ للناس مراد ربهم منهم، وهم الأنبياء والمرسلون، قال تعالى {۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٣} [سورة آل عمران:33].

كما اصطفى أمما بأسرها لتكون شاهدة على غيرها من الأمم، كبني إسرائيل، وغيرهم من الأقوام الذين استجابوا لأنبيائهم، ثم ختم هؤلاء بأمة الإسلام التي جعل الرسالية في مجموعها و أفرادها للشهادة على العالمين بأمانة البلاغ التي هي شطر الاستخلاف.

فالاستخلاف منه ما هو عام في بني البشر، ومنه ما هو خاص في بعض الأمم، ومنه ما هو أخص؛ وذلك هو استخلاف الأنبياء والمرسلين. وبذلك نستطيع تجميع مجمل أقوال المفسرين.

ب) الاستخلاف منة من الله وسلبه حرمان وعقاب

ويستشف ذلك من قوله تعالى: { وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٩} [سورة الأعراف:69]. ومن قوله سبحانه {وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ

ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤} [سورة الأعراف:74]. ومن قوله سبحانه {قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩} [سورة الأعراف:129]. ونظائره في القرآن كثير.

وذلك أن الله سبحانه بحسب منطوق هذه الآيات يمتن على طائفة من عباده بأن جعلهم خلفاء من بعد قوم مضوا، مبينا أن ذلك تفضل منه سبحانه، وأن سلبه عمن مضوا كان عقابا لهم، فالواجب عليهم إذا تقدير تلك المنة والعمل على أن يكونوا أهلا لها.

ج) الاستخلاف تجل لأخذ الميثاق

فقد أخذ الله تعالى ميثاق المصطفين على تحمل الأمانة فأقروا على أنفسهم، قال صاحب "بيان المعاني" في قوله تعالى: {وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١} [سورة آل عمران:81]. (أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف)[10]، ووجه ذلك أن أخذ الميثاق المنطوق به في هذه الآية وفي قوله تعالى: {وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢} [سورة الأعراف:172] منظور إليه من جهة أن أخذ الميثاق تهيئة للاستخلاف، فكأنه أشبه بقسم التولية ولله المثل الأعلى. ويستفاد من الآيتين أن الاستخلاف عام في ذرية آدم ومنه استخلاف خاص بالأنبياء، و أنه مقامات متكاملة تتجه في مجموعها إلى تحقيق الإرادة الربانية.

د) الاستخلاف تمكين

ويفهم من سياقات ورود التمكين مع الاستخلاف أنه مقتضى من مقتضياته، لأنه إذا تصور التمكين بغير استخلاف، فإنه لا استخلاف بغير تمكين، قال تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

[10] .بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول] لعبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) (5/ 361)

لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥} [سورة النور:55].

وذلك أن مقتضى الاستخلاف، بشكل عام أن يمكن ابن آدم من التصرف في موجودات العالم، ولكن ههنا تمكين من نوع خاص، وهو التمكين المفضي إلى النصرة على المناوئين إظهارا للحق، وإزهاقا للباطل، وهو تمكين مشروط بإقامة الاستخلاف على وجهه، بأداء ما افترضه الله، بدءا بإقامة التوحيد، ومحق الشرك، و انتهاء بالبلاغ و إقامة الشهادة على الخلق، وتلك هي المنة العظمى التي وعدت بها هذه الأمة إن هي حققت الاستخلاف على وجهه.

هـ) الاستخلاف ابتلاء

ويستشف من قوله تعالى: {قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩} [سورة الأعراف:129].

وذلك الاستخلاف تكليف، والتكليف تعرض له عوارض المشقة والإضلال، ومن ثم كان غرض الأساس هو ابتلاء ابن آدم، ليميز الله الخبيث من الطيب، فإما أن ينجح المبتلى فيكون على وفق مراد الله منه، فتتحقق له سعادة الدارين/ ويكون نموذجا للخير تقص أخباره على من بعده من الأمم، ليكون لهم هاديا، وإما أن يكون عكس ذلك.

المبحث الأول: في دلالات لفظ الإنسان في القرآن الكريم وسياقات وروده.

1) "الإنسان" في اللغة:

تجمع معاجم اللغة، قديمها وحديثها، في حدود اطلاعي على أن لفظ "إنسان" مأخوذ من مادة أنس وعلى الرغم من أنها لم تصرح بذلك إلا أن إيرادها كلمة "إنسان" ضمن مادة "أنس" شاهد على ذلك [11].

ومدار معناه في اللغة على أصل واحد عند ابن فارس وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس خلاف الجن، وسموا لظهورهم. يقال: آنست الشيء: إذا رأيته. قال الله تعالى: {فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا} [سورة النساء:6]. ويقال: آنست الشيء: إذا سمعته. وهذا مستعار من الأول[12].

وذهب صاحب المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم إلى أن مدار "أنس" على كون الشيء في وَسَطٍ مجانس أو مشاكل له... مع قيد وجود قدْر محدود من الخفاء. وهذا القدر متحقق في أكثر الاستعمالات... والاستئناس في آية الرُشْد مجرد أمارة. وهو رحمة، حتى لا يوقف تسليم القاصر ماله على القطع التام الوضوح ببلوغه الرشد. والاستئناس من ذلك الذي ذُكِر... وأن الناس أصله (أناس) حذفت همزته بعد دخول (ال) عليها لكثرة الاستعمال، ثم استمر الحذف بعد حذف (ال) [13].

2) موارد "الإنسان" في القرآن:

ما جاء في القرآن من جذر "أنس" هو (إيناس) النار والرُشْد، و (الاستئناس)، و (الإنس) مقابل الجن، والنسبة إليه، و (الإنسان) وجمعه (أناسيّ) و (الناس) والمعتمد أنه اسم جمع للإنسان كقوم ورهط[14]،

أما مفردة "الإنسان" فقد وردت في القرآن كله معرفة ب(ال) ولم ترد نكرة إلا في موضع واحد مضافة إلى كل، وذلك في قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣} [سورة الإسراء:13].

وحاصل تتبع أقوال المفسرين في لفظة "إنسان" في القرآن الكريم أنهم اختلفوا في حقيقة المراد بها في بعض الموارد استنادا إلى السياق أو إلى العقل أو إلى القواعد العامة، ودار خلافهم على ثلاثة أقوال:

---

[11]. ما عدا ابن سيدة في المخصص فقد صرح بذلك قائلا "إنسان عندي مشتق من أنس" المخصص مادة "أنس". غير أن ذلك لا ينفي إمكان اشتقاقه من نسي بدليل الأثر عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: (إنما سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسي) المعجم الصغير للطبراني (2/ 140)

[12]. مقاييس اللغة (1/ 145)

[13]. المعجم الاشتقاقي المؤصل (4/ 2189)

[14]. المعجم الاشتقاقي المؤصل (4/ 2188)

- الأول: الإطلاق في اسم الجنس إطلاقا يفيد العموم.
- الثاني: التقييد بسياق الورود وبالمعاني العامة بحمل الإنسان على المقصود أصالة بما وصف به، كتقييده بالكافر، أو بالمشرك.
- الثالث: الحمل على معين استنادا إلى أسباب النزول.

قال الطاهربن عاشورفي معرض تفسيره لقوله تعالى: {۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩} [سورة المعارج:19]. "المراد بالإنسان: جنس الإنسان لا فرد معين كقوله تعالى:{ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ} [سورة العلق:5-7]، وقوله: {خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ} [سورة الأنبياء:37]، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن"[15].

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى {إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ } [سورة العاديات:6]، قال: "الإنسان يجوز أن يراد به الجنس وهو الأظهروقول جمهور المفسرين، فالتعريف فيه تعريف الجنس، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك لأن قوله {أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَعَلَيۡهِ أَحَدٞ } [سورة البلد:5]. إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين، فالعموم عموم عرفي، أي الإنسان في عرف الناس يومئذ، ولم يكن المسلمون إلا نفرا قليلا ولذلك كثرفي القرآن إطلاق الإنسان مرادا به الكافرون من الناس. ويجوزأن يراد به إنسان معين، فالتعريف تعريف العهد، فعن الكلبي أنه أبو الأشد ويقال: أبو الأشدين واسمه أسيد بن كلدة الجمحي كان معروفا بالقوة والشدة ... وكان شديد الكفروالعداوة للنبيء صلى الله عليه وسلم فنزل فيه: {أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَعَلَيۡهِ أَحَدٞ } [سورة البلد:5]. وقيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: هو أبو جهل. وعن مقاتل: نزلت في الحارث بن عامربن نوفل، زعم أنه أنفق مالا على إفساد أمر النبيء صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو عمرو بن عبد ود الذي اقتحم الخندق في يوم الأحزاب ليدخل المدينة فقتله علي بن أبي طالب خلف الخندق [16].

ولئن كان قصدنا غير متجه للظفر بتعريف لماهية الإنسان تعريفا يحقق شروط التعريفات وضوابطها المنطقية، فإنه يكفينا أن نقرر أن لفظ "إنسان" في القرآن الكريم في كل موارده جاء بصيغ تفيد العموم إما معرفا ب (ال) المفيدة لاستغراق الجنس أو مضافا إلى (كل) التي تفيد الإطلاق. وبناء على ذلك

---

[15]. التحرير والتنوير،(29/ 166)

[16]. التحرير والتنوير، (30/ 350)

واستئناسا بقاعدة "أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" فإنه يجوز لنا أن نستنتج أن لفظ "الإنسان" حيثما ورد في القرآن يراد به العموم إما عموما مطلقا أو عموما عرفيا مخصوصا بمن سيق الكلام له.

ويبقى السياق هو الفيصل في تحديد ذلك، فمثلا في قوله تعالى:{وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ٣} [سورة العصر:1-3]، يفهم منه أن المراد بالإنسان جنس الإنسان بإطلاق، ذلك أن استثناء الذين آمنوا من الإنسان الموصوف بالخسر منبئ أن المراد به العموم، إذ لو أريد به خصوص المشركين أو الكفار لما كان لاستثناء الذين آمنوا معنى. قال صاحب البحر المحيط: "والإنسان اسم جنس يعم، ولذلك صح الاستثناء منه"[17].

وكذلك الأمر في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} فإنه لما كان الإحياء والإماتة متوجهان لعموم الإنسان، فإن السياق موجب حمل الإنسان في الآية على العموم؛ قال الطبري: "(إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) يقول: إن ابن آدم لجحود لنعم الله التي أنعم بها عليه من حُسن خلقه إياه، وتسخيره له ما سخر مما في الأرض والبرّ والبحر..." [18].

وأما في قوله تعالى: {وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥} [سورة الزخرف:15]، فإن الظاهر بحسب السياق أن بالمراد بالإنسان هؤلاء الذين جعلوا لله أندادا؛ قال ابن عطية "قوله تعالى: {إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥}، أي بلفظ الجنس العام، والمراد بعض الإنسان، وهو هؤلاء الجاعلون ومن أشبههم[19]. وقال ابن عاشور{إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥} تذييل يدل على استنكار ما زعموه بأنه كفر شديد. والمراد ب الإنسان هؤلاء الناس خاصة"[20].

3) سياقات ورود "الإنسان" في القرآن

يتجه القصد ههنا إلى محاولة تتبع سياقات ورود لفظ الإنسان عبر تتبع مختلف الصفات والضمائم التي جاء اللفظ محلى بها أو مضافة إليه. ولأن ذلك كثير من شأنه ألا يسعه هذا البحث، فإننا سنكتفي

---

17. البحر المحيط لأبي حيان (539/10).
18. جامع البيان، للطبري. (18/ 678).
19. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، (5/ 49)
20. التحرير والتنوير، (25/ 177).

بجمل منه؛ على أننا سنحرص أن تكون النماذج المسوقة دالة وكافية في التنبيه على المراد؛ والوجه في ذلك أن نكتفي فيما تكرر وروده بنموذج واحد إذا أغنى عن غيره، وأن نقتصر في ما اتحد معناه -وإن اختلف لفظه كذلك- على نموذج واحد؛ فإلى البيان:

أ) وصف الإنسان بالكفر

الكفر في اللغة الستر والتغطية، قال ابن فارس: "الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية"[21]، وقال الراغب: الكُفْرُ في اللّغة: ستر الشيء، ووصف الليل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزّرّاع لستره البذر في الأرض[22].

والكفر في القرآن نوعان كفر بالله وكفر بنعمه[23]. فالأول نقيض الإيمان والثاني نقيض الشكر، قال الراغب "أعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، ... وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، ... والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعا..." [24].

وكل ما ورد في القرآن من وصف عموم الإنسان بالكفر ورد بصيغة المبالغة بألفاظ "كفور" و"كفار" و "ما أكفره":

فأما وصف الإنسان بالكَفور فقد ورد تسع مرات منها على سبيل المثال:

في إنكار وجود الله قوله تعالى:{۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩} [سورة الإسراء:99]، وقوله تعالى {وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠} [سورة الفرقان:50].

---

21. مقاييس اللغة، (5/ 191).

22. المفردات في غريب القرآن، (ص: 714).

23. ويضاف إليهما المجموع منهما، وهو تحصيل حاصل فإن الكافر بالله أي منكر وجوده جاحد لنعمه من باب أولى.

24. المفردات في غريب القرآن، (ص: 714).

وفي جحود النعم وعدم شكرها قوله تعالى:{وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧} [سورة الإسراء:67]، وقوله تعالى: {وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩} [سورة هود:9].

وأما صيغة "كفار" فقد وردت صفة للإنسان مطلقا مرة واحدة في معنى جحود النعم، وذلك في قوله تعالى: {وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤} [سورة إبراهيم:34].

وأما وصف الإنسان بـ"ما أكفره" فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى: {قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ} [سورة عبس:17]، وهي في المجموع من الصفتين أعني بهما جحود الخالق وجحود نعمه. وحجم الورود فيهما في السياقين منسجم مع حجم الجرم فيهما، فجحود النعمة ما هو إلا تجل من تجليات جحود الخالق.

ب) وصف الإنسان بالخصيم المبين:

جاء ذلك في موردين اثنين هما قوله تعالى: {خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤} [سورة النحل:4]، وقوله سبحانه {أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧} [سورة يس:77].

والخصيم في اللغة من خصم، والخصومة: "الجدل. خاصمه خصاما ومخاصمة فخصمه يخصمه خصما: غلبه بالحجة"[25].

وفي القرآن الكريم "خَصِيمٌ مُبِينٌ فيه معنيان، أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منىّ جماداً لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته. والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيي العظام وهي رميم، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة"[26]. وكلا المعنيين في كلا السياقين مانعان من موانع مقام تحقيق الاستخلاف.

---

[25] .لسان العرب، (12/ 180).

[26] .لسان العرب (12/ 180) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (2/ 593).

ج) وصف الإنسان بالطغيان

ورد وصفه بهذه الصفة مرة واحدة في القرآن في قوله تعالى:{كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧} [سورة العلق:6-7].

والطغيان في اللغة مجاوزة الحد والخروج عن القدر[27]، وأما في لسان القرآن فهو غير خارج عن ذلك، ولكنه مخصوص بعصيان الله سبحانه قال الراغب: "طغوت وطغيت طغوانا وطغيانا، وأطغاه كذا: حمله على الطغيان، وذلك تجاوز الحد في العصيان. قال تعالى: (اذهب إلى فرعون إنه طغى)"[28].

وقد حدد سياق الآية سبب طغيان الإنسان كما حدده سبب نزولها، قال ابن عطية: "نزلت بعد مدة من شأن أبي جهل بن هشام، وذلك أنه طغى لغناه ولكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ونهاه عن الصلاة في المسجد... والطغيان: تجاوز الحدود الجميلة، والغنى: مطغ إلا من عصم الله"[29].

ويشخص سيد قطب أثر هذه الأسباب في تدسية النفوس تصوير مقابلة ومفاصلة في قوله: "إن الذي أعطاه فأغناه هو الله. كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه وعلمه. ولكن الإنسان في عمومه- لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه- لا يشكر حين يعطى فيستغني ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته، وهو المصدر الذي أعطاه خلقه وأعطاه علمه.. ثم أعطاه رزقه.. ثم هو يطغى ويفجر، ويبغي ويتكبر، من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر"[30]. ومن كانت هذه أوصافه في المفهوم القرآني فهو يدمر لا يعمر.

د) وصف الإنسان باليأس

وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في ثلاثة موارد هي:

---

27. مقاييس اللغة/ لسان العرب، مادة (طغى).
28. المفردات في غريب القرآن، (ص: 520).
29. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (5/ 502).
30. في ظلال القرآن، (6/ 3942).

قوله تعالى: {وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩} [سورة هود:9]. وقوله سبحانه {وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣} [سورة الإسراء:83]. وقوله عزوجل: {لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٨} [سورة فصلت:48].

واليأس في اللغة: القنوط، ونقيض الرجاء[31]، أو قطع الرجاء[32]. وأما فيما نحن بصدده من بيان القرآن لحال الإنسان من وصفه باليؤوس مبالغة في اليأس، فهو ظاهر لأن الوصف أتى في موردين مقرونا بوصف آخر. إذ قرن في آية سورة هود بالكفران، أما في سورة فصلت فقرن بصفة القنوط.

قال ابن عاشور: "واليؤوس والكفور مثالا مبالغة في الآيس وكافر النعمة، أي جاحدها، والمراد بالكفور: منكر نعمة الله لأنه تصدر منه أقوال وخواطر من السخط على ما انتابه كأنه لم ينعم عليه قط[33].

وقال في الآية الثانية "وأما أن الإنسان يؤوس قنوط إن مسه الشر فذلك من خلق قلة صبر الإنسان على ما يتعبه ويشق عليه فيضجر إن لحقه شر ولا يوازي بين ما كان فيه من خير...، بل ييأس ويقنط غضبا وكبرا ولا ينتظر معاودة الخير ظاهرا عليه أثر اليأس بانكسار وحزن... والقنوط: انفعال يدني من أثر اليأس وهو انكسار وتضاؤل"[34].

ه) وصف الإنسان بالكنود

وقد ورد هذا الوصف المخصوص به الإنسان في مورد واحد في قوله تعالى: {إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦} [سورة العاديات:6].

ومداره في اللغة على كفران النعمة وجحودها [35]. وأما في القرآن فقد جاء بصيغة المبالغة وصفا مستغرقا لعموم الإنسان للدلالة على أنه يوجد "في طبع الإنسان الكنود لربه، أي كفران نعمته، وهذا

---

31. لسان العرب، مادة: (ي أ س).
32. مقاييس اللغة، مادة: (ي أ س).
33. التحرير والتنوير، (12/ 13).
34. التحرير والتنوير، (10/25).
35. المقاييس، ولسان العرب ، ومختار الصحاح، مادة (كند).

عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكمل أهل الصلاح لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه"[36].

و) وصف الإنسان بالجدل

وقد ورد وصف الإنسان بالجدل في مورد واحد في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ٥٤} [سورة الكهف:53].

ومعناه في اللغة يؤول إلى شدة الخصومة كما سلف، وفي القرآن جاء وصف الإنسان بقوله {وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ٥٤} [سورة الكهف:53] "لقصد المبالغة في شدة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع حتى فيما ترك الجدال في شأنه أحسن، بحيث إن شدة الوصف فيه تشبه تفوقه في الوصف على كل من يعرض أنه موصوف به، وذلك إشارة منه سبحانه إلى أن "أن الجدال فيه مجرد مكابرة وعناد"[37].

ز) وصف الإنسان بالهلع:

وقد جاء ذلك في مورد واحد وذلك في قوله تعالى {إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩} [سورة المعارج:19].

والهلع في اللغة الحرص الشديد والمسارعة إلى الجزع. قال ابن فارس الهاء واللام والعين: يدل على سرعة وحدة. وناقة هلواع: حديدة سريعة. ومنه الهلع في الإنسان: شبه الحرص. ورجل هلع وهلوع. قال ابن السكيت: رجل هلعة يهلع ويجزع سريعا[38]. ووصف الإنسان بالهلوع بفتح الهاء مبالغة في ما ينتابه من الهلع، قيل يفسرها ما جاء بعدها من قوله تعالى: {إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ } [سورة المعارج:19-22]. ورد ذلك ابن عاشور مبينا أن ذلك التفسير فيه تساهل أقنع كثيرا من اللغويين عن زيادة الضبط لمعنى الهلع. وهي كلمة لا تخلو عن تسامح وقلة تحديد للمعنى ثم قال: "والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع

---

36. التحرير والتنوير، (502/30).

37. التحرير والتنوير (352/15).

38. مقاييس اللغة مادة (هلع).

بالشره، وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء. وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني ويريك أنها آثار لصفة الهلع"[39].

ح) وصف الإنسان بالخسر

ورد ذلك في القرآن مرة واحدة في سورة العصر في قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ١} [سورة العصر:1-3]. ومداره في اللغة على النقصان[40]، وهو ضد الربح في التجارة[41]، وأما في القرآن في سياق ما نحن بصدد من كون الخسران وصفا للإنسان فمعناه ما يدخل على الإنسان من نقصان جراء تضييعه ما أتيح له من العمر في ما لا يعود عليه بالنفع وما يؤول في نهاية الأمر إلى خسران ميزان أعماله يوم القيامة[42]. وقال الطبري: قوله: (إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) يقول: إن ابن آدم لفي هلَكة ونقصان[43].

وقال الشوكاني: "المعنى: أن كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت. وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقيل: جماعة من الكفار، وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ولدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: لفي خسر في هلكة"[44].

ط) وصف الإنسان بالظلم

ورد ذلك في القرآن الكريم في موردين: أولهما قرن فيه وصف الظلم بالكفر وثانيهما قرن فيه وصف الظلم بالجهل أما الأول فقوله تعالى: {وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤} [سورة إبراهيم:34]. وأما الثاني ففي قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢} [سورة الأحزاب:72].

---

39. التحرير والتنوير (29/ 167).
40. مقاييس اللغة مادة (خ س ر).
41. لسان العرب مادة (خ س ر).
42. المعنى مأخوذ من كلام الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: 282).
43. تفسير الطبري (جامع البيان) ت شاكر (24/ 589)
44. فتح القدير للشوكاني (5/ 600)

والظلم في اللغة مداره على أخذ الشيء من غير حله أو وضعه في غير محله[45]، وأما في القرآن فيما نحن بصدده من كونه صفة ملازمة للإنسان فقال ابن عاشور: المراد ب الإنسان صنف منه، وهو المتصف بمضمون الجملة المؤكدة وتأكيدها، فالإنسان هو المشرك، مثل الذي في قوله تعالى: {وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيّٗا ٦٦} [سورة مريم:66] وهو استعمال كثير في القرآن. وصيغتا المبالغة في "لظلوم كفار" اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره[46].

ي) وصف الإنسان بالفرح والفخر

وقد جاء ذلك في القرآن وصفا للإنسان في موردين: الأول في قوله تعالى { وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ } [سورة هود:9-10]. والثاني في سورة الشورى من قوله تعالى: { وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨} [سورة الشورى:48].

وكلاهما جاءتا نقيضا لوصف سبق هو الكفران، فلئن كان الإنسان يؤوسا كفورا عند فقدان النعم فإنه فرح فخور عند إصابة النعم. والظاهر أن الفرح الوارد ههنا ليس المقصود به الفرح المباح و إنما الفرح الباعث على الفخر والخيلاء والتبجح؛ قال ابن عاشور: "(فرح وفخور) مثالا مبالغة، أي لشديد الفرح شديد الفخر. وشدة الفرح: تجاوزه الحد وهو البطر والأشر، كما في قوله: { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَۖ ٧٦} [سورة القصص:76]. والفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس. والمعنى أنه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وما كان فيه من الضراء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وناقل الأحوال، والمخالف بين أسبابها. وفي معنى الآيتين قوله في سورة الشورى { وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞۖ ٤٥} [سورة الشورى:48] [47].

---

[45]. حاصل تجميع الكلام من القاموس واللسان والتعريفات والمفردات للراغب وغيرها

[46]. التحرير والتنوير (13/ 237)

[47]. التحرير والتنوير (12/ 14).

وبعد، فلعلنا نكتفي بهذا القدر من الأوصاف الصريحة في ذم الإنسان، على أننا أغفلنا مواطن أخرى فيها النعي على الإنسان من جهة عدم رعايته لجميل من أحسن إليه كوالديه أو ما وصف به من استحكام وصف الضعف في جبلته، أووصفه بالقتوروالبخيل، أوكونه مخلوقا في كبد، أوكونه عجولا، أورده أسفل سافلين بعد أن خلقه في أحسن تقويم وغيرذلك اقتصارا على المهم واختصارا للكلام.

وخلاصة القول أن كل موارد الإنسان في القرآن مما ورد موصوفا إنما جاءت على سبيل الذم، أو على سبيل إثبات النقص في الجبلة وسواء أكان ذلك الذم موجها لعمومه، أولخصوص طائفة منه أولأكثره فإن ذلك مشكل مع ما تم تأصيله في التمهيد الخاص بهذا البحث، وذلك من ثبوت اصطفاء ابن آدم واستخلافه وتمكينه وتفضيله على كثيرمن الخلق، وغيرذلك.

وهو تعارض صوري يدفع إلى وجوب رفعه، إذ لا تعارض في الحقيقة و إنما كل وارد في محله بحسب سياقه، وهنا وقع الابتلاء بكلمات الله، فلا يطيق ذلك الرفع إلا المتدبر في القرآن بجمع الآيات كلها، وتنزيل كل منها منزلها. وإن من شأن أي قارئ للقرآن متدبر لمعانيه أن تستوقفه هذه التقابلات، وأن تستفزه ليبحث لها عن جواب

وتلك مهمة المبحث الموالي

المبحث الثاني: في سبل تنمية الإنسان وتأهيله لمباشرة العمران وفق منهج القرآن

في هذا المقام ومن أجل بيان سبل انعتاق الإنسان من الأوتاد التي تشده إلى الأرض، وتعوقه عن الانطلاق امتثالا لواجبات الاستخلاف وبناء العمران؛ كان لزاما علينا بيان "مفهوم التنمية" في حق الإنسان، وذلك من خلال آي القرآن. لأنه مصطلح حظي بكثيرمن الاهتمام والمقاربة من زوايا مختلفة ومتعددة لدى الأفراد والمؤسسات والدول، وكانت له أبعاد إنسانية و اقتصادية واجتماعية وكذا سياسية، فوجب تحديد المقصود في هذا السياق.

1) مفهوم تنمية الإنسان في القرآن:

والتنمية في اللغة مصدر من "نمى" بمعنى زاد وكثر، يقال: أنميت الشيء ونميته: جعلته ناميا[48]. ومنه النماء وهو الخير والصلاح، ولذلك يعبر به عن معنى التطور والرقي وكل انتقال من حال إلى حال أفضل منها.

والتنمية في الاصطلاح: تعرف بتعاريف متعددة حسب المشارب والمرجعيات، مما يجعل مفهومها أعقد دلالة وأعسر تفسيرا. لكنه في اصطلاح الشرع يتميز بخاصيتين اثنتين، أولاهما أنه اتصف بالإحاطة والشمولية لسائر الجوانب الإنسانية، وذلك باعتبار المقاربة الشرعية التي ترسم منهج الحياة الأكمل في القرآن والسنة، وثانيتهما اتصف بالوضوح باعتبار البيان القرآني والنبوي.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم وإن كان قد عالج مفهوم التنمية من كل جوانبه بشكل متوازن يجمع بين مقومات الإنسان الذاتية والخارجية، إلا أنه لم يستعمل لفظ التنمية ولا شيئا من مشتقاته، ولكننا بتأمل الآيات التي تتحدث عن الحياة الطيبة وما يوصل إليها من تزكية، وإحسان، وعمل صالح، وإعمار وغيره يمكننا أن نعرف التنمية من المنظور القرآني بقولنا: "إنها تزكية الإنسان وتحسين ظروفه إعمارا للأرض وإصلاحا لشؤونها".

2) في سبل تنمية الإنسان في القرآن

وبعد مطالعة تفاسير عديدة استقر في النفس أن معظم ما وصف به الإنسان من الأوصاف القدحية، هي خصال ركبت فيه بمقتضى جبلته، فقد جبل الإنسان على الخير والشر، على قبول الهدى والضلال قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا } [سورة الشمس:7 - 8]. قال الطبري "يقول تعالى ذكره: فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير، أو شرّ أو طاعة، أو معصية"[49].

وقال ابن عطية: "والنفس التي أقسم بها، اسم الجنس، وتسويتها إكمال عقلها ونظرها، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالى: فَأَلْهَمَها (الآية)، فالفاء تعطي أن التسوية هي هذا الإلهام، ومعنى قوله تعالى:

---

[48] .لسان العرب، لابن منظور، (341/15).

[49] .تفسير الطبري ، جامع البيان ت شاكر (24/ 454).

فُجُورَها وَتَقْواها أي عرفها طرق ذلك وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور أو اكتساب التقوى، ... والفاعل ب «زكى» يحتمل أن يكون الله تعالى، وقاله ابن عباس وغيره كأنه قال: قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زكاها الله تعالى، ومَنْ: تقع على جمع و إفراد، ويحتمل أن يكون الفاعل ب «زكى» الإنسان وعليه تقع مَنْ وقاله الحسن وغيره، كأنه قال: قَدْ أَفْلَحَ من زكى نفسه أي اكتسب الزكاء الذي قد خلقه الله، وزكَّاها معناه: طهرها ونماها بالخيرات، ودَسَّاها معناه: أخفاها وحقرها أي وصغر قدرها بالمعاصي والبخل بما يجب"[50].

وبيان ذلك بحسب ابن عاشور: "أن تركيب المدارك البشرية ركزت بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف، وساعية إلى الملائم ومعرضة عن المنافر. وجعلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب... (و) يميز الفرق بين آثار الموجودات و آثار أفعالها بين النافع منها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضر. وخلق فيه إلهاما يحب النافع ويكره الضار، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال وبعض الذوات قد يريه الحال النافع منها ولا يريه الحال الضار، فيبتغي ما يظنه نافعا غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل، أو شاعرا بذلك، ولكن شغفه بحصول النفع العاجل يرجح عنده تناوله الآني لعدم صبره على تركه مقدرا معاذير أو حيلا يقتحم بها ما فيه من ضر آجل. وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تسترعنه ضر الضار ونفع النافع فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه، ... غير أن الله جعل للإنسان عقلا وحكمة إن هو أحسن استعمالهما نخلت صفاته، وثقفت من قناته، ولم يخله من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يريض جامح نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء؛ فإذا أخبر عن الإنسان بشدة تلبسه ببعض النقائص وجعل ذلك في قالب أنه جبل عليه فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعة ذلك عليه لأنه فرط في إراضة نفسه على ما فيها من جبلة الخير، وأرخى لها العنان إلى غاية الشر، وفرط في نصائح الشرائع والحكماء"51.

حاصل ذلك أن ما يقع من الإنسان من الصفات التي يذم بسببها إنما كان بسبب عجز منه عن إراضة نفسه وأطرها على الحق وإلزامها سلوك طريق الهدى، وأن هذا التنكب منه ما هو بدو افع نفسية ذاتية

---

[50] .تفسير ابن عطية، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) (5/ 488).

[51] التحرير والتنوير (169/29)

ومنه ما هو بسبب استزلال الشياطين، ولا شك أن استزلال الشياطين لا يفعل في الإنسان إلا إن وجد منه الاستعداد النفسي.

لأجل ذلك فقد كان من رحمة الله سبحانه أن نصب للإنسان العلامات الهادية، وركب فيه داعي الفطرة، وألزمه الحجة ببعثة الأنبياء والمرسلين، ولم يخل زمان من دعاة للخير تقوم بهم الحجة على الناس، واكتملت المنة ببعثة خاتم الأنبياء وإنزال خاتمة الكتب.

فكيف يعرض القرآن مداخل تنمية الإنسان، رفعا له من مقام التدسية إلى مقام التزكية؟

نعرض في ما يلي خلاصة ما انتهى إليه تقليب النظر في جمع من التفاسير وأخصها ثلاثة هي تفسير ابن عطية وتفسير المنار وتفسير التحرير والتنوير، وقد آثرنا أن نقف مع ما ذهب إليه الإمام ابن عاشور لأنه جمع فأوعى، وقرب البعيد بلفظ يسير فإلى البيان.

وذلك أن القرآن الكريم في إطار سعيه لتزكية الإنسان إنما هو قاصد لإصلاح أمره، عودا به إلى أصل الخلقة وهي الفطرة، وذلك أن الفطرة هي حالة من الصلاح البدئي الذي أوجد الله عليه بني الإنسان، من حيث كونهم معترفين لربهم بالوحدانية مقرين له بالخضوع، وذلك مقتضى ما أخذ عليهم من الميثاق وهم في عالم الذر قال تعالى: {وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢} [سورة الأعراف:172].

وقد جاءت الآية حاملة لخلاصة ما نود قوله ههنا وذلك أن بني آدم مقرون في أصل الخلقة لربهم بالوحدانية معترفون له بالربوبية غير أن آخر الآية منبئ أن طروء النسيان على كثير منهم وارد، وأنهم سيحتجون على ربهم بغفلتهم وعدم علمهم، غير أن عذرهم في غير محله، فقد اجتمع عليهم ما ركب في نفوسهم من معرفة الأدلة الدالة على الله سبحانه، وما أقامه الله عليهم من الحجج الباهرة المبثوثة في أنفسهم وفي الآفاق، وكذا ما أرسل به رسله من البينات والهدى.

هذا وإن جماع ما جاء به القرآن الكريم من بيان أصول تنمية الإنسان وتزكيته أساسان:

- الأول: إيجاد ما يقيم الصلاح وينميه
- الثاني: إيجاد ما يضمن دوامه ويحفظه من الزوال.

أما الأساس الأول فقائم على إصلاح العقل وإصلاح العمل. وأما الأساس الثاني فقائم على إيجاد الوازع والحث على اكتساب العلم وتعميم الدعوة للإصلاح الفردي، وكل ذلك مستند إلى مقررات فطرية.

- الأساس الأول: إيجاد ما يقيم الصلاح وينميه

ومدار ذلك على أمرين هما: إصلاح العقل وإصلاح العمل:

أ) إصلاح العقل:

فأما إصلاح العقل فعليه مدار الإصلاح كله، إذ «إصلاح عقل الإنسان هو أساس إصلاح جميع خصاله» [52]، وما الإنسان إلا عقل تخدمه أعضاء[53]، وأول ما ينبغي أن يؤسس عليه إصلاح العقل الوقوف به عند ما فطر عليه، وذلك بإعماله فيما هو داخل تحت سلطان الإدراك البشري... ثم هو قائم على إصلاح الاعتقاد والفكر.

أما إصلاح الاعتقاد فأول ما ينبغي أن يؤسس عليه، إصلاح العقل من حيث كان البحث عن الخالق أمرا مرتكزا في الفطرة [54]، إذ هو مقتضى العهد الفطري المفهوم من قوله تعالى: {وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢} [سورة الأعراف:172].

ذلك أن «الإنسان مسوق بفطرته إلى التفكر في وجود نفسه، ومنتقل إلى التفكير في موجده وحقيقة موجده ... ومنته إلى اليقين بوجوب كونه واحدا فذلك الاعتقاد المودع في الفطرة» [55] لذلك لزم أن يكون أول ما يهتم به من أمر صلاح عقل الإنسان إصلاح اعتقاده. وكذلك كان الأمر في الإسلام بما هو دين الفطرة «فقد جاء أول هدى منبئ بوجود الخالق فتطابق الوجدان والإرشاد» [56]، أي فتطابقت دعوة الإسلام مع دعوة الفطرة.

---

52. أصول النظام الاجتماعي، ص 41.
53. المرجع نفسه، ص 41.
54. المرجع نفسه، ص42.
55. المرجع نفسه، ص 42-43.
56. المرجع نفسه، ص43.

ثم يتفرع عن إصلاح الاعتقاد إصلاح التفكير؛ فالعقل إذا ربي «على صحة الاعتقاد تنزه عن مخامرة الأوهام الضالة، فشب على سبر الحقائق والمدركات الصحيحة، فنبا عن الباطل وتهيأ لقبول التعاليم الصالحة والعمل الحق»[57]. ولأن الله سبحانه «الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم قد أودع في فطرته قوة الفكر المصيب»، لذلك تجد الإنسان « إن نشأ على الاعتقاد المصيب ارتاض عقله بقوانين الفكر المصيب، وإن نشأ على ضد ذلك سخر عقله لاتباع طرائق الخطأ في التفكير، وقبول التعاليم الضالة ،ثم اختراع تعاليم أخرى إلى أن تتراكم عليه الضلالات والخرافات»[58] .

خلاصة القضية، أن الفطرة موجه في إصلاح عقل ابن آدام اعتقادا وفكرا، من حيث كون الإنسان مسوقا بفطرته إلى التفكير في علة وجوده، فهي مُلزِمة صاحبها بالاعتراف بوجود الله ووحدانية ووصفه بما يليق به، استنادا إلى ما قرر في أصلها من العهد الفطري المأخوذ على آدم وذريته في عالم الذر، والفطرة لا ينشأ عنها إلا الفكر السليم، من حيث إنها لا تقبل إلا الحقائق والاعتبارات ولا تقبل الأوهام والتخيلات.

ب) إصلاح العمل

وأما إصلاح العمل فإنه نتيجة حتمية لإصلاح الاعتقاد، ذلك أن «أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم و أفكارهم، فجدير بمن صلحت عقائده و أفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة»[59].

توسطا بين الجبر والاختيار، «الذي بالإضافة إلى كونه مسنودا بالنصوص الشرعية، كما فهمها السلف من الصحابة وغيرهم، فإنه مسنود بالفطرة أيضا، ذلك أننا «إذا رجعنا إلى تحكيم الفطرة العقلية، وجدنا من أنفسنا استطاعة بها نفعل وبها ندع، ووجدنا الواحد منا يهم بالأمر ثم يعدل عن فعله، ويهم بالأمر ويفعله، ويشرع في الفعل فيعظه الواعظ وينهاه الحكيم فيكف عنه، ويرى أن كفه إجابة للموعظة وربما قال له: لولا أنت ما كففت، ونحن أيضا نجد من الفطرة في أنفسنا أننا مخلوقون لله تعالى فنحن واستطاعتنا منه تعالى»[60].

---

[57]. المرجع نفسه، ص 46.

[58]. المرجع نفسه ص42-43

[59]. أصول النظام الاجتماعي ص 58.

[60]. المرجع نفسه ص 62.

هذا هو التفكير الصحيح الدافع لحسن العمل وهو ما تقبله الفطرة أيضا، من حيث إنه «يروض أصحابه على الاعتقاد بمقدرتهم، ويعلمهم الافتقار إلى الله في طلب التوفيق والعصمة من الخذلان، فينشأ في نفوس أهل هذا الاعتقاد عاملان لا بد منهما في استقامة أعمال الإنسان وهما: السعي للكمال بقواه و أفعاله، وتطلب الكمال فيما يتجاوز قوته من واهب القوى ومفيض السعادة سبحانه، فيكون صاحب هذا الاعتقاد مقبلا على دنياه، ساعيا لأخراه متذللا للذي سواه»[61].

وإصلاح العمل لا بد فيه من إصلاح الخلق، وليس عبثا أن يجعل رسول الله جماع ما بعث به في إتمام صالح الأخلاق، في قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) [62]، ورواه مالك في رو اية بلاغا: (لأتمم مكارم الأخلاق) [63]، لأن الأخلاق أساس صلاح العمل، كما هي أساس كل تنمية بشرية بالمفهوم القرآني، ولأجل ذلك كان اصطفاء الأنبياء على أساس الأخلاق، لأنهم أكمل الناس أخلاقا فكانوا أقدرهم على الدعوة، وأعرفهم بكل تنمية بشرية، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤} [سورة القلم:4].

---

[61]. أصول النظام الاجتماعي ص 62.

[62]. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ح: 8952، والسنن الكبرى للبيهقي، ح: 21303، ومصنف ابن أبي شيبة، ح: 31773.

[63]. السنن الكبرى للبيهقي، ح: 20571، ومصنف ابن أبي شيبة، ح: 31773.

- **الأساس الثاني: إيجاد ما يضمن دوام أثر الإصلاح ويحفظه من الزوال**

إذ لا يكفي في الصلاح أن يتم بادئ الأمر إما بتحصيله فعلا أو بتحصيل أسبابه، بل لا بد من السعي في استدامته، بإيجاد ما يحفظه من الخرق، وعليه فإن المصلح المعصوم، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ما كان «بالذي يقصر إصلاحه على تعليم الفضائل، وتمييزها من أضدادها، وغرسها في نفوس أتباعه ومريديه وتدريبهم على العمل بما تقتضيه»، بل إن تمام الإصلاح يقتضي أن يشايع «تعاليمه في النفوس، ويقيم لها ما يجددها ويحرسها من أن تتلاعب بها عواصف الأهواء»، نتيجة ما ركب في الإنسان من القوى الميالة إلى الهوى، أو نتيجة التضليل من دعاة الغواية... هذه الحراسة هي إيجاد الوازع، والحث على اكتساب العلم وتعميم الدعوة للإصلاح الفردي بين المسلمين وهي كلها راجعة إلى معنى الوازع.

أ) إيجاد الوازع

أما الوازع فمداره على «إيجاد نفوذ الشريعة واحترامها في نفوس الناس» [64]، «إذ لا تحصل المنفعة المقصودة منها كاملة بدون نفوذها»[65]. لذلك سعت إلى إيجاد الوازع من حيث كونه «مانعا من اقتراف السوء»[66]. وقد قسمه ابن عاشور إلى ثلاثة أنواع: جبلي وسماه نفسيا في مقام آخر[67] ، وديني وسلطاني. أما الوازع السلطاني فله صلة بالإصلاح الاجتماعي وليس هو من مقصودنا في هذا البحث.

وأما الوازع الجبلي فقد كان أول ما استندت إليه الشريعة، «وقد كان كافيا لها من الإطالة بالتشريع للمنافع التي تتطلبها الأنفس من ذاتها، وبالتحذير من المفاسد التي يكون للنفوس منها زاجر عنها، مثل منافع الاقتيات واللباس، وحفظ النسل والزوجات»[68].

ولأهمية الوازع الجبلي، «كانت الشريعة تعمد إلى الأمور العظيمة التي تخشى أن لا يغني فيها الوازع الديني الغناء المرغوب، فتصبغها بصبغة الأمور الجبلية، كما فعلت في تحريم الصهر، لتلحق الصهر بالنسب

---

64. المرجع نفسه.
65. مقاصد الشريعة الإسلامية (3/ 350).
66. المرجع نفسه ص 76.
67. في أصول النظام الاجتماعي ص 75.
68. مقاصد الشريعة الإسلامية (3/ 364).

في جعل الوازع عن الزنا فيه كالجبلي[69]، وقلب الوازع الديني وازعا جبليا ليس بالعسير باعتماد التحذير من العقاب، وبث التشنيع في العادة[70]، «فإن كثيرا من الأمور التي تظهر في صورة الجبليات، ما كانت إلا تعاليم دينية، مثل ستر العورة، ومحرمية الآباء والأبناء، وقد نجد مباحات مذمومة يتنزه الناس عنها لمذمتها»[71].

وأما الوازع الديني فهو «وازع الإيمان الصحيح المتفرع إلى الرجاء والخوف، فلذلك كان تنفيذ الأوامر والنواهي موكولا إلى دين المخاطبين بها»، وشواهد ذلك كثيرة جدا، منها، بحسب ابن عاشور، قوله تعالى {وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُومِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة البقرة 226-227]. وقوله سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [سورة البقرة:235]. وغير ذلك من الآيات والآثار النبوية.

خلاصة قضية الوازع باعتباره وسيلة لاستدامة الصلاح، اعتماد الشريعة فيه على ما فطر عليه الإنسان في ما يجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة، وإذا تدخلت الشريعة بزيادة حث على أمر، أو تحذير من آخر، فلخوف تخلف الوازع الفطري، نتيجة ما قد يعتريه. ولأهمية الوازع الفطري فإن الشريعة قد تعمد إلى أن تصبح بعض أنواع التشريع من قبيل الوازع الفطري، حتى يتسنى للناس الخضوع لها خضوعا طوعيا يدفع إليه الطبع.

ب) الحث على اكتساب العلم

العلوم التي يكتسبها الناس، والتي ابتدأها السابق ووصلها اللاحق، كلها تسعى إلى غاية واحدة وهي: إما إصلاح الفكر ليعصم من الخطأ في التأمل في غرض ما، وإما إصلاح العمل عند إرادة عمل معين للاحتراز عن الأخطاء العارضة عند عمله. فلا جرم أن كان الحث على اكتساب العلم حثا لتحصيل سبب إصلاح الفكر وصلاح العمل، ووسيلة لإصلاح الاعتقاد، وتكملة لإيجاد الوازع النفساني[72]. وبذلك يظهر أن لزوم طلب العلم، في هذا المقام، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ذلك أن «الحث على اكتساب

---

69. المرجع نفسه (3/ 365).

70. المرجع نفسه ببعض التصرف.

71. المرجع نفسه (3/366).

72. أصول النظام الاجتماعي ص 78

العلم تحريك للمقاصد الثلاثة الماضية وهي التفكير وإصلاح العمل و إيجاد الوازع»[73]، على أن وجوبه بحسب ابن عاشور مراتب، بحسب ما انتدب المرء نفسه إليه، وبحسب الاستعداد، ولذلك فرق الله بين الناس في العلم فريقين، طائفة تتفرغ له وتنفر في سبيله، وطائفة تأخذ عن هؤلاء.

وبحسب تفاوت الناس في درجات العلم يتأهلون لإدراك مقررات الفطرة عند التباسها بما يناقضها أو مما يشتبه بها ذلك أن «المخاطبين بتمييز الفطرة عن غيرها هم العلماء والحكماء، أهل العقول الراجحة، فلا يعوز هؤلاء تحقيق معنى الفطرة وتمييزها عما يلتبس بها من المدركات والوجدانات. على أنه إن عسر على أحدهم تحقيق معنى فطري دقيق، أو شديد التباس غيره به، وخاف هوى نفسه أن يخيل له الأمر غير الفطري، فعليه حينئذ أن يعمق النظر طويلا، وأن يعتبر بشهادة العلماء الأفاضل المشهود لأفكارهم بكثرة العصمة من الخطأ»[74].

الخاتمة

---

[73]. المرجع نفسه.

[74]. مقاصد الشريعة الإسلامية (3/ 182)

وبعد، فقد حاول هذا البحث المتواضع بيان أسس تنمية الإنسان في القرآن تأهيلا له لمهمة العمران التي هي مهمة الاستخلاف، ولبسط ذلك فقد مهد لبيان حقيقة الاستخلاف المراد من جهة كونها تكليفا من الله سبحانه لنوع الإنسان بالقيام بأمره في الأرض و إقامة شرعه فيها، مع ما يقتضيه ذلك من وجوب المدافعة، وأن ذلك منوط بنوع الإنسان في الأصل؛ غير أنه لا يتأهل له على الحقيقة إلا من كان على ما أراده الله منه، من تحقيق الصلاح في النفس قبل تحقيقه في الوجود، وقد اقتضى هذا الاستخلاف أن يكون اصطفاء لجنس الإنسان على غيره من المخلوقات، وأن يكون في ذلك إشعارا بالتكريم الإلهي له، وكل ذلك من عظيم منن الله على الإنسان من غير استحقاق و إنما هو محض التفضل، كما أن الاستخلاف في حقيقته تحقيق لما أخذه الله على آدم وذريته من الميثاق وهم في عالم الذر.

غير أن ذلك كله يشكل عليه أن الإنسان في القرآن كله قد وصف بأوصاف قدحية تنبئ ببعده الكبير عن هذا الذي امتن عليه به، بل تجعله في اسفل سافلين أبعد ما يكون عن القيام بحق الله، و أبعد ما يكون عن مراد الله منه، فكان لا بد من التعرض لمختلف ما وصف به الإنسان بحسب ما يسمح به الإمكان، وقد تصدى لذلك المبحث الأول من هذا البحث.

وجاء المبحث الثاني ليوفق بين المقامين فيبن الطريق الذي يجب على المصلحين سلوكه وهم يحاولون تنمية الإنسان وتزكيته ليصير عبد لله قائما بأمره بعيدا عن الخضوع لداعية هواه.

وهكذا أتم الله المنة بإتمام هذا البحث المتواضع الذي لم يجاوز فيه صاحبه جهد المقل، معترفا فيه بالقصور والنقصان الذي هو من جبلة بني الإنسان، غير أن ذلك لا يمنع من احتوائه على بعض التنبيهات التي يجب أن تستثمر في القادم من الأيام، ترقية لهذا البحث ومزيد إحكام، رجاء أن يستوعب ما تم إغفاله تجنبا للتطويل الذي لا يناسب المقام.

والله نسأل أن يمن بالقبول والحمد لله مسك الختام

قائمة المصادر والمراجع (مرتبة ألفبائيا)

- المصحف الشريف برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق بالعد المدني.
- الأذكار، تحقيق: الأرنؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1414 هـ - 1994م.
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للشيخ محمد الطاهر بن عاشور نشر دار السلام بالقاهرة الطبعة الأولى 1426هـ/2005م.
- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: 745هـ) تحقيق صدقي محمد جميل نشر دار الفكر - بيروت 1420 هـ
- بيان المعاني مرتب حسب ترتيب النزول لعبد القادر بن ملّا حويش (المتوفى: 1398هـ) مطبعة الترقي – دمشق الطبعة الأولى 1382 هـ - 1965 م
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ) الدار التونسية للنشر – تونس 1984م
- تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (المتوفى: 1354هـ) نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1990
- شرح السنة، تحقيق: الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، 1403 هـ - 1983 م.
- العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى: 170هـ) تحقيق د مهدي المخزومي، ود إبراهيم السامرائي نشر دار ومكتبة الهلال دون رقم طبعة ولا تاريخ طبع.

- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ) نشر دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة الأولى - 1414 هـ
- في ظلال القرآن لسيد قطب (المتوفى: 1385هـ) نشر دار الشروق - بيروت- القاهرة الطبعة السابعة عشر - 1412 هـ
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري (المتوفى: 538هـ) نشر دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة - 1407 هـ
- لسان العرب لحمد بن مكرم بن على، ابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفى: 711هـ) دار صادر – بيروت الطبعة الثالثة - 1414 هـ
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ) تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ونشر دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى - 1422 هـ
- مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666) تحقيق يوسف الشيخ محمد نشر المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا الطبعة الخامسة، 1420هـ / 1999م
- المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: 458هـ) تحقيق خليل إبراهيم جفال نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى 1417هـ 1996م
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم للدكتور محمد حسن حسن جبل نشر مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة الأولى 2010 م.
- المعجم الصغير للطبراني لسليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ) تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير نشر المكتب الإسلامي، دار عمار- بيروت , عمان الطبعة الأولى 1405 - 1985

- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ) تحقيق صفوان عدنان الداودي ونشر دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة الأولى - 1412هـ

- مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ) دراسة وتحقيق الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر الطبعة الأولى 1425 هـ - 2004 م.

- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس القزويني الرازي، (المتوفى: 395هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر دار الفكر ط 1 1979م

- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م.